د/ أبو القاسم سعد الله
(جامعة الجـزائـر)

الـمـوسـوعـة الأوراسيــة (*)

طالما سمعنا الشكوى من أن حجم منطقة الأوراس ودورها التاريخي والسياسي لا يتناسبان مع حجم البحوث التاريخية المخصصة لها، في القديم والحديث فإذا دخلت إلى مكتبة ما أو راجعت قوائم البيبلوغرافيات عن المناطق الوطنية، فإنك ستلاحظ الفرق بين منطقة وأخرى فيما خصص لها من العناية العلمية والاهتمام بماضيها، وستلاحظ كذلك ان ماهو خاص بالأوراس قليل جدا، رغم أن المنطقة لها لعلعة خاصة في صنع الأحداث عبر كل مراحل التاريخ لماذا هذا الاهمال ؟

هناك أسباب بدون شك، ولكن الكتاب قد لايتفقون عليها جميعا. فمنطقة الأوراس كانت دوما منطقة عبور للانسان، أو منطقة هروب ومن ثمة فهي لم تعرف الاستقرار الذى هو لوازم الحضـارة والثقافة. كانت قسنطينة هي المدينة الجاذبة لأهل الأوراس ولكنهم لم يستطيعوا أن يؤثروا في المدينة أو يوجهوها إليهم لأنها كانت موضع جذب آخر، وهو الجذب البحري، ونعني بذلك المدن الساحلية أو القريبة من البحر مثل ميلة وجيجل والقل وعنابة إلخ. والمعروف ان انسان البحر أكثر نشاطا وتفتحا من إنسان الجبل والصحراء. وقد عرفت منطقـة الأوراس في العهـود الاسـلامية مدينة بسكرة كقاعدة للملك والاستقرار، ولكن استقرارها لم يستمر طويلا، خلافا لقلعة بني حماد في الحضنة وبجاية في منطقة زواوة. ومن ثمة بقي علماء الأوراس وأعيانه يبحثون عن مستقر آخر غير منطقتهم. وكان عليهم نتيجة لذلـك أن يتخلوا عن جبليتهم وأن يتأقلموا في البيئات الجديدة وهكذا ضاعت جهودهم وبقيت منطقتهم مهربا فقط للمغضوب عليهم والثوار الساخطين على النظم القائمة، تنتهي فيها الموجات ولاتنطلق منها وأقرب حدث تاريخي إلينا هو ثورة نوفمبر، حيث كان الأوراس مجمع الأسلحة والثوار سنة 1954، وقد تحمل النصيب الأكبر في السنتين الأولين للثورة، ولكن مؤتمر الصومام رجح الكفة لغيره وقد أحس أهل الأوراس حتى في عهد الاستقلال بأن منطقتهم بقيت مجذوبة لا جاذبة، رغم ظهور باتنة كعاصمة إقليمية وظهور مدن أخرى مدعمة.

ولعل من أسباب إهمال الأوراس في الكتابات الأخرى، سيما في العهد الفرنسي أن المنطقة ظلت حصنا للثورات والقطيعة مع الادارة الاستعمارية فكانت حقا تمثل صمود المقاومة وكان الفرنسيون قد فهموا ذلك منها، وبدل أن يعملوا على إخضاع الأوراس اكتفوا بمحاصرته وتجريده من إمكانات الثورة عليهم إقتصاديا وعلميا، وأبقوه على الهامش، فلم يكتبوا عنه إلا قليلا ولم ينشروا فيه المدارس والصناعات والطرق ونحوها من وسائل اليقظة والخروج من العزلة، كما فعلوا مع بعض المناطق الأخرى مثل منطقة القبائل وبعض الجهات الغربية.

* مراجعة لأطروحة الدكتور عبد الحميد زوزو وعنوانها التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي لأقليم الأوراس (1837 ـ 1939).

Créé avec nitroPDF professional
Télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

وكانت سياسة فرنسا في الجزائر تقوم على ثلاثة ركائز خلاصتها التفريق بين الجزائريين وخلق الحساسيات فيما بينهم حتى لايتحدوا، وهذه الركائز هي : تقريب البعض وتبعيد البعض وإهمال البعض. وهي السياسة نفسها التي اتبعتها بريطانيا في الهند أيضا، ولكن على أساس ديني وطبقي، ولذلك لانستغرب أن يفاخر الحاكم العام الفرنسي (شارل ليتو) سنة 1917 بأن الأوراس لم « يفتح » إلا في عهده هو، أمام الحضارة الأروبية ولكن من الغريب حقا أن يتخذ الأستاذ عبد الحميد زوزو هذا التاريخ بالذات (1916) هو أحد عاملين في (نهضة) الأوراس الحديثة.

ومهما كانت الأسباب التي تقف وراء إهمال الأوراس في الكتابات والتأليف والاطروحات عامة، فالذى لاشك فيه هو أن الجيل الحاضر من أهل الأوراس قد شعروا بهذا الفراغ فأخذوا يسدونه ويدونون تاريخ المنطقة تدوينا يليق بدورهم ومكانتهم ليس فقط في تاريخ الجزائر ولكن في تاريخ المغرب العربي عامة، لأن الأوراس في الواقع هو قلب هذا المغرب العربي موقعا وهو حصنه الحصين رمزا. ولا تثريب، بعد ذلك على أهل الأوراس فقد حافظوا على الأصول، وكانوا المرجع الصحيح للأصالة والاسلام واللغة العربية والفروسية، بينما اعترت غيرهم عوامل التفكك والمسخ حتى أخذوا يتشككون في أنفسهم وهو يتهم.

* * *

في فاتـح 1992 كنت أزور المكتبـة الـوطنية الفرنسية في باريس، وعند مدخل بناية المطبوعات التقيت فجأة مع الأستاذ شارل روبير آجرون الذي لم ألقه منذ 1987 حين شاركنا معا في الملتقى الخاص بذكرى ميلاد نجم الشمال الافريقي في باريس، وبعد السؤال عن الأحوال العلمية أخبرني أنه على أبواب التقاعد وأنه لم يبق عنده من الطلاب الذين يشرف عليهم غير طالب جزائري واحد هو عبد الحميد زوزو وأنه على وشك الانتهاء من عمله وأحسست من كلامه أنه بهذا الاشراف الأخير سيودع الحياة الأكاديمية، فقلت له معزيا : لاعليك فالعمر ما يزال طويلا وطريق البحث لانهاية له، ومثلك من له باع طويل في الحياة الجامعية، وباستطاعتك مواصلة المسيرة في البحث والتأليف وكتابة مذكراتك. وفهمت منه أيضا أنه كان معتزا بعمل تلميذه الأخير ـ الذي كان أيضا من تلاميذى الاوائل ـ وقد توادعنا في انتظار الحدث الهام وهو مناقشة أطروحة عبد الحميد زوزو التي تمثل النهاية الأكاديمية للاستاذ آجرون، والبداية للباحث زوزو.

وفعـلا ناقش الـدكتور زوزو في الصيف الماضي (1992) عمله الموسوعي عن منطقة الأوراس وقد تفضل مشكورا باطلاعي على إنجازه العلمي الضخم، وطلب رأيي فيه. إن عنـوان الأطـروحـة وحـده كاف للدلالـة على طابعهـا الموسوعي اذ هو (التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي لأقليم الأوراس، (1837 ـ 1939) وإذا كان نظام دكتوراه الدولة في فرنسـا يسمح بتناول موضوع واسع بهذا الحجم الضخم، فإني أكاد أحس بأن خلف إختيار الأستـاذ زوزو لموضـوعه عاملين، أولهما كتابة تاريخ يفتخر به أهل الأوراس (وهو منهم)، والثاني مضاهاة أطروحة أستاذه آجرون عندما تناول « الجزائر الفرنسية » في أطروحة عنوانها بالضبط (فرنسا والمسلمون الجزائريون، 1871 ـ 1919) في 1312 صفحة مطبوعة ولذلك لاتستغرب أن تجد أطروحة الباحث زوزز وقد ضمت 1335 صفحة مرقونة.

لعلك فهمت من الفترة المذكورة (1837 ـ 1939) إن الأستاذ زوزو خصص بحثه لأقليم الأوراس مدة قرن فقط ولكن الواقع انه برغم هذه التواريخ في العنوان فإن الأطروحة تذهب أبعد وأقدم من ذلك. لقد تناول الأستاذ زوزو إقليم الأوراس منذ العهود القديمة جغرافية وسلالة وتاريخا وعادات ولغة وكل الظواهر الأخرى من إدارة وقيادات وحروب وقبائل ونحو ذلك ومن ثمة فإن مصادره ليست هي فقط كتابات (سيروكا) و (لارتيق) و (هيربيون) و (ميرسييه) ومن إليهم من ضباط المكاتب العربية ورؤساء البلديات المختلطة من الفرنسيين، بل أن مصادر زوزو ترجع حتى إلى ماقبل التاريخ، ثم هيرودوت، وسالوست، وليفي، ثم ابن خلدون والبكرى والأدريسي والحسن الوزان (ليون الأفريقي) وهذه الجولة الواسعة في تاريخ الاقليم وهذا التناول الشامل لجزئياته هي التي جعلتنا نحكم على هذا العمل بأنه موسوعة أوراسية بكل معنى الكلمة. وبدون شك رجع زوزو أيضا إلى الأرشيفات الوطنية والأجنبية وإلى المطبوع من الكتب والمجلات والجرائد، بالاضافة إلى مخطوطات ووثائق الزوايا وحتى الروايات الشفوية. إن عملا ظل فيه صاحبه حوالي خمس عشرة سنة، منقطعا له مقتنعا برسالته، متسلحا بالوسائل العلمية والتقنية، مؤمنا بأنه يقدم به خدمة جليلة لنفسه وإقليمه ووطنه، لايمكن إلا أن يكون جديرا بالاعتبار والتقدير.

وقد عبر زوزو عن دوافعه بصراحة، فكانت هي ـ فيما يقول ـ الشعور بالغبن والاهمال من قبل الدارسين لمنطقة الأوراس وعلى المستوى الأكاديمي خاصة فإن المنطقة، كما يقول أيضا، تكاد تخلو من الدراسة التاريخية والدراسات القليلة التي ظهرت حول المنطقة لاتكاد تخلو من المحاباة ومن الطابع الرسمي (الاستعمارى) ويعتذر زوزو منذ البداية لأن موضوعه الجزئى لايكاد ينفصل عن إطاره الكلي، وهو تاريخ الجزائر العام، ذلك أن أحداث منطقة الأوراس ليست معزولة عن أحداث مناطق أخرى مثل قسنطينة والحضنة والصحراء الشرقية، والعكس صحيح أيضا ومع ذلك خطط زوزو لمنطقة الأوراس فعرفها بأنها المنطقة التي تضم باتنة وبسكرة وخنشلة وخنقة سيدى ناجى، أما تبسة ووادى ريغ ووادى سوف فلم يدخلها في مخطط الدراسة ومع ذلك فهو يقول أنه لم يتقيد بالحدود المذكورة ذلك أنه من الصعب فصل ثورة الحداد والمقراني مثلا عن الفروع الرحمانية في الأوراس، ومن الأصعب أن تفصل الحركة الاصلاحية في منطقة الأوراس عن رأسها في قسنطينة بل والعاصمة. إن حركة الاستيطان الأروبي وقوانين إنشاء البلديات، والانتخابات، والحركة الوطنية وأمثالها لايمكن معالجتها إقليميا دون بتر وتعسف.

ولعل الأخطر من ذلك أن نزعم اليوم حدودا مكانية لقبائل الأوراس ولهجاته ومراكزه الدينية. وإذا كانت الشخصيات نفسها تتقاطع باستمرار ـ بوعكاز ـ بن قانة / أحمد باى ـ الأمير عبد القادر / إبن باديس ـ مصالي الحاج، فإنه من الصعب بل من المستحيل الحديث اليوم عن أن زناتة أو هوارة أوراسية، ذلك أن زناتة كانت منتشرة من غرب الجزائر إلى شرقها، كما أن مواطن هوارة متعددة كذلك، ومنها تلك الموجودة حول الفيوم بمصر وهل يمكن القول اليوم أن ثورة الزعاطشة هي ثورة الزيبان وحده. أن الذين يحذرون من مزالق التاريخ المحلي إنما يحذرون من مغبة مثل هذه الأحكام ونعتقد أنه بقدر ماتعطى لمنطقة الأوراس الصبغة الوطنية بل والاسلامية والعالمية، بقدر ماتزداد قيمتها في التاريخ، وهذا يصدق في الواقع على كل منطقة وكل إقليم.

Créé avec
nitroPDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

وهناك بعض الملاحظات التي شدت إنتباهنا في أطروحة الأستاذ زوزو والتي نود أن نلفت إليها النظر فهو يقول منذ البداية : أنه لن يكون له حكم مسبق ضد المستعمر، كما ليس له غرض لصالح المستعمر (بالفتح) ويعلن بصراحة أن هدفه من البحث ليس محاكمة المستعمر (بالكسر) ولا إلتماس العذر للمستعمر (بالفتح) وأن هدفه الوحيد هو فقط دراسة الملامح والعلاقات التي كانت بين « المجموعتين » (كذا) خلال عهد طويل من « التعايش » استمر أكثر من مائة سنة وللوصول إلى هذه الدراسة المحايدة لجأ الأستاذ زوزو إلى الأرشيف فأنار له الطريق وجعله يوازن بين المعتقدات القديمة وبعض الأساطير التي زينها الاستعمار والنوايا السيئة.

إن بعض العبارات والمصطلحات السابقة تحتاج إلى مناقشة ولو سريعة. صحيح أن الباحث قد ينطلق من موقف محايدا ومجرد حتى لايقوده الرأى المسبق أو الهوى الشخصي أو الحزبي إلى نتيجة مسبقة أيضا. ولكن نتيجة الدراسة المحادية قد لاتنتهي نهاية محايدة، أو بالأحرى قد تكون موضوعية قاسية. ألا يبدأ القاضي النزيه محايدا بسماع المدعى عليه والشهود والاطلاع على جميع البينات والوثائق، ثم يصدر حكمه « الموضوعي » بالقصاص الذي يصل حد الاعدام أحيانا ؟ والمؤرخ القاضي قد يبدأ بالحياد ولكنه بعد الحصحصة والتوثيق اللازمين « لا يصدر أحكاما حيادية » وإنما يقتص للمغلوب من الغالب والمظلوم من الظالم، إذا كان طبعا مؤرخا وقاضيا نزيها.

وقد لفت نظرنا أيضا عبارات نراها مطاطة وفيها الكثير من المجاملة التي قد تكون على حساب العلم ذلك أن زوزو قد إنطلق من الشعور بأن منطقة الأوراس كانت محرومة من ضوء التاريخ ومهملة في مسيرة العلم والمعرفة ومظلومة إقتصاديا إلى درجة العظم. ومع ذلك يبدأ عمله بقوله : أنه ليس له غرض في إنصاف المستعمر (بالفتح) من المستعمر (بالكسر) ولا الوقوف في صالح الأول ضد الثاني. فهل كان تعامل الاستعمار الفرنسي مع أهل الأوراس قضية تخفى على الباحث، ولا تظهر له إلا يوم عكس المعلوم بالضرورة، وهو أن الفرنسيين لم يستعمروا الجزائريين وإنما هؤلاء هم الذين استعمروا الفرنسيين. وما رأيكم في عبارة : « المجموعتين » هذه التي تعني في مصطلح ذلك الوقت : الأهالي والأروبيين أو الأندجين والكولون. أن عبارة « المجموعتين » كانت مصطلحا شائعا عندما كان الفرنسيون يرفضون وجود الشعب الجزائرى ويعتبرون الجزائر مسكونة بمجموعتين متساكنتين (أو متعايشتين كما عبر عن ذلك الأستاذ زوزو) حكم عليهما القدر أن يعيشا معا تحت العلم الفرنسي، وقد كانت العبارة شائعة لدى النخبة وفي أقلام الساسة الفرنسيين وحتى لدى الحزب الشيوعي الفرنسي الذى كان يعتبر الأمة الجزائرية ما تزال في طور التكوين ـ من المسلمين والأروبيين معا ـ ولكن إذا كان استعمال مثل هذه المصطلحات جائزا وشائعا في الثلاثينات، فكيف يبقى مستعملا ومقدما بطريقة محايدة بعد ثلاثين سنة من عمر إستقلال الجزائر ؟

* * *

ولعل القارىء يريد أن يعرف المخطط الذى بنى عليه الأستاذ زوزو موسوعته عن منطقة الأوراس. فبعد حوالي 80 صفحة كمدخل رجع فيه إلى الأزمنة العتيقة والاسلامية، نجده قد قسم العمل إلى سبعة أقسام، وفي كل قسم فصلان أو ثلاثة فصول. مثلا القسم الأول

الذى يضم ثلاثة فصول، عنوانه (الوضع حوالي 1844) أي حين إحتل العدو بسكرة ومنطقة الزيبان وانهزم فيه خلفاء الأمير عبد القادر وقد يتناول فيه التسكين (السكن) والديموغرافية والجانب الاقتصادى، ثم السلطات المحلية وهو في هذا القسم إنما يتحدث عن وضع المنطقة عشية الاحتلال وقد إحتوى القسم الأول حوالي مائة صفحة وبذلك يصبح هو والمدخل حوالي 180 صفحة، وكلها تعتبر مدخل إلى القسم الثاني الذى هو في الواقع فاتحة الأطروحة، حسب عنوانه.

فعنوان القسم الثاني هو الاحتلال والمقاومة (1837 ـ 1879)، وقد ضمنه الباحث ثلاثة فصول أيضا وبه يدخل في صميم الموضوع لأن سنة 1837 هي سنة إستيلاء الفرنسيين على قسنطينة والتجاء الحاج أحمد باي إلى الأوراس، ودخول ابن قانة تحت الرعاية الفرنسية ومحاولات فرحات بن سعيد (بوعكاز) الاستفادة من الوضع المضطرب في الأوراس لصالح أسرته.

وخلال هذه الفترة الطويلة (إلى 1879) شهدت منطقة الأوراس ما لا يكاد يحصى من انتفاضات ضد المحتلين الذين أخذوا يتسربون من قسنطينة إلى بسكرة (1842 ـ 1844) بعد أن وضعوا أقدامهم في باتنة وامتدت أعينهم إلى المناطق المجاورة، وقد كان على الباحث حينئذ أن يتحدث عن موضوعات مدروسة إلى حد ما ولكن لامناص من ذكرها مادامت تقع في المكان والزمان المحدد للقسم والفصل، مثل ثورة الزعاطشة وحريق نارة، وثورة الحاج سي الصادق، وثورة المقراني وصداها في الأوراس والحضنة والزيبان والصحراء، ومحاولة التثوير التي قام بها الأمير محي الدين بن الأمير عبد القادر، نواحي نقرين وسوف وتبسة، وانتفاضة بوشوشة وشريف ورقلة، وأخيرا إنتفاضة جار الله بالأوراس (1879) فهل في إستطاعة قسم واحد من رسالة تضم سبعة أقسام أن يغطي بدقة كل تلك الانتفاضات؟ ذلك أمر صعب.

ولكن القسم الثالث من الأطروحة تفادى تحديد الزمان، لأن الأحداث أصبحت تنظيمية وترويضية ولم تعد مدافعة ومقاومة فقد عم الاحتلال العسكرى وتكونت المكاتب العربية وعينت القيادات المحلية الموالية للعدو، ووصل الاحتلال في الخمسينات إلى الجنوب الشرقي، إلى ورقلة وسوف وتقرت. لذلك كان عنوان القسم الثالث: (تنظيم الأوراس) فهل هذا عنوان «محايد» في عمل يفترض أنه ليس محايدا؟ لقد كان الفرنسيون أكثر صدقا في التعبير عندما أطلقوا على المرحلة التالية للاحتلال الشامل إسم (التهدئة)، وهي العملية التي شملت إستعمال الأسلحة من جهة واستعمال الترغيب والترهيب من جهة أخرى أما اسم (التنظيم) الذى استعمله الأستاذ زوزو فهو إصطلاح فرنسي يراد به السيطرة والتحكم في الجزائريين عن طريق الاندماج الادارى وإستعمال الوسائل البيروقراطية الفرنسية مكان «الأنظمة» الجزائرية (الفوضوية؟) القائمة عندئذ. ومهما كان الأمر فإن القسم الثالث تضمن فصلين فقط، أحدهما عن التنظيم الاداري والثاني عن التنظيم القضائي. وفي التنظيم القضائى وحده مجال للباحثين في التجربة الفرنسية بالجزائر عامة والأوراس خاصة فكثيرا من المقاومة كانت من أجل الابقاء على تطبيق الشريعة الاسلامية وإحترام المكاسب الشرعية ومكانة القاضي المسلم ولكن الفرنسيين ضربوا بكل ذلك عرض الحائط وقضوا بالتدرج على سلطات القضاة المسلمين حتى انحصر دور القاضي فقط في كتابة عقد الزواج والطلاق.

ورغم إعلان الحياد، فإن المطالع لرسالة الأستاذ زوزو يحس أنه لم يستطع أن يظل كذلك فقد عالج في القسم الرابع وسائل الاستغلال الاستعماري، أثره على أوضاع الجزائريين،

Créé avec nitro PDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

وأحس الباحث أنه أمام تعسف وغطرسة في معاقبة الجزائريين على الانتفاضات والمقاومة، فكان النفي والتقزيم والتجريد من الأملاك، والقهر، ولذلك فإن الفصلين اللذين إحتواهما القسم حملا هذين العنوانين: التجريد من الأملاك بواسطة التغريم، ثم مواجهة السكان للأزمة. وأية مواجهة؟

وبعد الاحتلال والتنظيم الادارى والقضائي وفرض السلطة، جاء دور: (الحصول على الأرض لفائدة الاستعمار)، وهذا في الواقع هو عنوان القسم الخامس من الأطروحة ومن الوسائل التي لجأ إليها الاستعمار زرع المستوطنين الأوربيين في الأراضي التي إغتصبت من الجزائريين أو التي كانت ملكا للدولة السابقة، ثم تفطن نابليون الثالث ومستشاروه إلى وسيلة أخرى للقضاء على خلايا المجتمع الجزائرى وإغتصاب الأرض من أهلها بالحيلة بدل المواجهة، فأصدر قانون 1863 الذى نص على أن الأرض العرشية تظل عرشية ويعترف بها القانون كذلك دون الاستظهار بوثائق الملكية، لأنها أصلا ملك مشاع للقبيلة أو العرش ولكن وراء هذا الوجه الجميل خلقة دميمة، وهي أن تلك الأرض توزع بعد ذلك على أفراد العرش وتثبت بالعقود الفردية، ثم تكون صالحة للبيع للأروبيين وغيرهم، على أن جزاء كبيرا منها يصبح تابعا للدوار (البلدية) الذى سينشأ مكان أرض العرش، لأستعمالها في الضرورات العامة، كالطرق والكنيسة والسوق والساحات إلخ. ورغم معارضة الجزائريين وإحتجاجاتهم على ذلك فإن العصا الغليظة هي التي نجحت عن طريق القانون المذكور، وقانون آخر أكثر وقعا منه صادرا سنة 1887 بالاضافة إلى إستعمال المصادرات والاحتجازات Séguestres والاجلاء. ومن ثمة نجد الفصول الثلاثة التي إحتوى عليها القسم الخامس هي: الاستيطان والاستعمار قبل 1863، وتطبيق المرسوم المشيخى (سنتوس كونسلت)، والمصادرات والاحتجازات وأخيرا قانون 1887 وما عقبه من مصادرات أيضا (وكل هذه العناوين ليست خاصة في الواقع، بمنطقة الأوراس).

وهناك عناوين لأقسام وفصول كنت لا أستغرب إستعمالها من الأساتذة الفرنسيين، مثل آجرون، ولكني أستغرب إستعمالها من الأستاذ زوزو. فقد جعل عنوان القسم السادس: (الاحتلال المعنوى) وجعل عنوان أحد فصول هذا القسم هكذا: (الاحتلال بالتعليم) أما الفصل الثاني للقسم السادس فقد جعل عنوانه: (الاحتلال بإضعاف الطرق الدينية واستعمال الزوايا) والمدرسة التاريخية الفرنسية هي التي تقسم الاحتلال إلى مراحل ولكل مرحلة ميزتها وملمحها فهناك عهد التردد وهناك عهد الاحتلال الشامل، وهناك عهد التهدئة والترويض، ثم يبدأ عهد الاحتلال المعنوى الذى يعنون به بث وسائل الاندماج والاختلاط بالأروبيين وإنتشار التعليم الفرنسي وتوظيف بعض الجزائريين ليقوموا بمهمة الفرنسيين لدى مواطنيهم المسلمين وبالتالي فإن هذا العهد هو المسمى بأداء فرنسا (لمهمتها الحضارية) في الجزائر والملاحظ أن (الاحتلال المعنوى) عند الفرنسيين يشمل، بالاضافة إلى التعليم، التطبيب والتنصير والأعمال الخيرية، ولكن الأستاذ زوزو قصر الاحتلال المعنوى على (الاحتلال بالتعليم) وعلى توظيف آخر قلاع المقاومة الجزائرية وهي الطرق الصوفية والزوايا ومهما كان الأمر فإن هذا العهد يبدأ من عقد التسعينات سواء بالنسبة للتعليم أو بالنسبة للموقف من المؤسسات الدينية، كما أنه ظاهرة ليست خاصة بمنطقة

الأوراس بل هي ظاهرة طبقت في القطر كله، أو بالأحرى هي الفلسفة الاستعمارية الجديدة في معاملة الانسان الجزائرى في مواجهة النهضة الاسلامية عندئذ ومجاراة سياسة الاستعمار الانكليزي في الهند والهولندى في اندونيسيا.

أما القسم السابع والأخير فقد سار فيه الأستاذ زوزو على منوال القسم السادس أيضا فجعل عنوانه (تطور وتحول الأوراس من 1900 إلى 1939) وضمنه ثلاثة فصول، أولها عن محاولات « التحديث » في الاقتصاد والحياة الاجتماعية لدى الأوراسيين، والثاني تناول فيه التصنيف الاجتماعي (الطبقي) ومستوى المعيشة وأنماطها. وكان في هذين الفصلين خلدونيا من جهة ودور خايميا من جهة أخرى. ولعل سيادة المذاهب الاجتماعية بين الحربين في الجزائر وغيرها هو الذى جعل الأستاذ زوزو يلجأ إلى التصنيف الاجتماعي (وليس إلى الصراع الطبقي) الذى إختاره. ومن الأكيد أن الميول الاشتراكية للأستاذ آجرون نفسه قد ألقت بظلالها على بعض الفقرات والتفسيرات للتصنيف المذكور.

وما يلفت النظر حقا في هذا القسم بل في الأطروحة كلها، هو عنوان الفصل الثالث من القسم السابع، وهو (يقظة الأوراس) فمتى بدأت اليقظة الأوراسية إذن ؟ وماعوامل ظهورها ؟ انها عند الأستاذ زوزو قد حدثت منذ الحرب العالمية الأولى ومن عواملها : ثورة 1916 التي لم تدرس إلى الآن دراسة وطنية وإنما درست دراسة جهوية. ومن عوامل هذه اليقظة أيضا هجرة الأوراسيين إلى فرنسا عمالا وإختلاطهم بالعالم الآخر كما يذكر الأستاذ زوزو من عوامل اليقظة إنتخابات 1919 الناتجة عن الاصلاحات الموجهة لاكتساب النخبة الجزائرية إلى جانب فرنسا وإدماجها، مكافأة لها على خوضها الحرب إلى جانب « أم الوطن » وأخيرا يذكر الباحث الحياة السياسية والثقافية في الأوراس، بين الحربين وهي المعبر عنها بفترة (النهضة) على المستوى الوطني، وهي التي ابتدأت بالأمير خالد ومرت بابن جلول وفرحات عباس والحكيم سعدان، ثم إبن باديس ومصالي الحاج ولاشك ان للأوراس قياداته الاصلاحية والسياسية أيضا على المستوى المحلي والجهوى.

إن الرسالة تبدأ كما ذكرنا بحياة الأوراس البدائية وتنتهي بالأوراس وقد إستيقظ ودخل باب النهضة والحضارة. إن البحث لم يبدأ، كما ذكرنا سنة 1837، سنة إحتلال قسنطينة وانتشار العدو كالجراد على منطقة الأوراس وإنطلاق المقاومة الشعبية المعروفة. ولكنه بدأ من الأصول القبلية والأنثوغرافية والجغرافية للأوراس، وأعطى ذلك حوالي مائة وخمسين صفحة من الرسالة قبل سنة 1844 (تاريخ إحتلال بسكرة) ولذلك قلنا أن العمل موسوعي وأنه إنطلق من الحياة البدائية لأهل الأوراس وإذا كان لسنة 1837 (بل سنة 1844) مبرراتها لأنها كانت تعبر عن بداية تغيير أساسي في البنية السياسية والاقتصادية والثقافية في المنطقة (وفي الجزائر عامة)، فإن سنة 1939 ليست نهاية واضحة المبررات بالنسبة للأوراس. ما الذى حدث في الأوراس دون غيره في هذه السنة. لانظن أن هناك حادثا فاصلا حدث في الأوراس يستوجب ذلك رغم القول بوجود تحول سيكولوجي فيه ولذلك فإن الأطروحة لو انتهت بانتهاء الحرب العالمية الأولى، أي بنتائج ثورة 1916 لكان لها مبرر أوضح ونحن نلاحظ ذلك من عملية التوثيق نفسها.

لقد رجع الأستاذ زوز، كما ذكرنا، إلى مصادر ومراجع كثيرة تشهد له بالصبر والثبات والتعلق بالبحث وحب العلم والولاء للمنطقة وكان من الطبيعي أن يعود إلى الكتابات

Créé avec
nitro PDF professional
télécharger la version d'essai gratuite sur nitropdf.com/professional

المتخصصة وغيرها، مايتعلق بالمنطقة وغيرها أيضا، ونكاد نقول في مختلف العصور مادامت البداية كانت من التاريخ القديم والاسلامي والعثماني والفرنسي حقيقة أن جل المصادر كانت من الأرشيف الفرنسي في مختلف مظانه، ولكن عند عقد موازنة بين إستثمار المصادر في الأطروحة، فإننا نلاحظ أن القسم السابع والأخير من الرسالة كان ضعيف التوثيق بالنسبة لغيره. ولاندرى هل ذلك راجع إلى كون الفرنسيين لم يطلقوا سراح كل وثائقهم التي تبدأ من 1919، أو إلى كون الباحث قد اعتراه الملل والتعب فاكتفى ببعض الروايات الشفوية أحيانا من الذين عاصروا الأحداث، أو ربما يعود ذلك إلى كون المشاركين في أحداث الجزائر منذ 1919 مايزال بعضهم على قيد الحياة. أننا لاندرى السبب بالضبط ولكن الذى لاشك فيه أن توثيق القسم الأخير أفقر من توثيق بقية الأقسام.

وإضافة إلى ثروة البيبلوغرافية، فإننا نجد جزءا كاملا من الأطروحة (وهي في أربعة أجزاء) مخصصا للملاحق، وهي حقا ملاحق هامة وغنية بلغت ستين وثيقة، بعضها طويل وآخر قصير، وبعضها بالعربية وآخر بالفرنسية، بل فيها الوثائق المكتوبة بالعربية الفصيحة والأخرى المكتوبة بالعامية. والمعلوم أن الملاحق يؤتى بها لأثراء الأطروحة بما لايمكن الاتيان به كله أثناء التحرير ولعل هدف الأستاذ زوزو من إيراد هذا العدد الكبير من الوثائق في الملاحق هو من جهة توفير مادة للباحثين لايمكن الاطلاع عليها بسهولة في الارشيفات ولامعرفة مظانها إلا بعد عناء، ومن جهة أخرى لعل هدفه هو وضع هذه الوثائق أمام أعين أهل الأوراس ليعرفوا مصادر تاريخهم وينطلقوا منها في الاهتمام به.

كما تضم الأطروحة مجموعة من الصور لبعض الأعيان الجزائريين وغيرهم، أمثال إبن قانة، وعلي باى بوعكاز، وعلي بن عيسى الفرجاني، وسيروكا، وصور أخرى لبعض المعارك ولكن نظرا لاتساع رقعة البحث وكثرة القادة والأعيان والمعارك لاندرى لماذا اكتفى الأستاذ زوزو بثماني صور فقط فأين مثلا صورة الحاج أحمد باى، أو صورة بوزيان أو الحاج الصادق ؟

ونحن نعتقد أن صور العديد من القادة والأعيان عامة متوفرة فيما يسمى (الكتاب الذهبي) للجزائر، وكذلك في كتاب (أعيان المغاربة) لعائلة غوفيون، لو أراد الأستاذ زوزو إثراء الأطروحة بمجموعة أخرى من الصور. وقد ضمت الأطروحة أيضا 26 رسما و 22 خريطة، ذات قيمة كبيرة.

إنه لايسعنا في النهاية إلا أن نعود إلى ما بدأنا به وهو أن أطروحة الأستاذ زوزو هي بحق (موسوعة أوراسية) رغم أنها لاتخضع لجميع مقاييس الموسوعات فمادتها التاريخية وتنوع إختصاصاتها المعرفية، وامتداد أزمنتها، وتعدد أحداثها، كل ذلك يصبغ عليها طابع (الانسكلوبيديا) أما إرضاء قرائها من الأوراسيين فأمر مستحيل في نظرنا لأن المعالجات القبلية اليوم لم تعد من المسلمات العلمية حتى تقنعهم ثم أن الادوار السياسية والدينية التي لعبها بعض الأوراسيين في العهد الاستعمارى لن تكون محل إتفاق الجميع عند إصدار الأحكام على أصحابها ولكن (رضى الناس غاية لاتدرك)، ومن هذا المنطلق يمكننا القول بأنه يكفى الأستاذ زوزو الآن أن يصبح عمله مرجعا أساسيا لتاريخ منطقة الأوراس، بل لتاريخ الجزائر كله كما لايسعنا إلى أن نهنىء الأستاذ زوزو على نجاحه في الدكتوراة ونجاحه في إثارة هذه الشجون والخواطر حول أطروحته الموسوعية الثرية بالاجتهادات.

أبو القاسم سعد الله
جامعة الجزائر
يوم أول فبراير 1993